

الأخلاق في القرآن فروع المسائل الأخلاقية

[408] وتضرعه إلى الله تعالى لا غير، وهي العبارة التي تصور البعض أنها من قبيل الشكوى، ولكنه خطأ فاحش لأنها لا تتضمن أي نوع وأي أثر للشكوى فيها حيث تقول : (إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنْزِلْنِي مَسْجِدًا لِّىَّ الشَّيْطَانُ بِذُنُوبٍ وَعَذَابٍ). - - وتأتي "الآية الثانية" لتستعرض صبر "النبي يعقوب" الذي يُعد أسطورة في الصبر والاستقامة، فقد فَقَدَ ابنه وأعز ما لديه في الحياة، وهو "يوسف" الذي كان يحبه حبًّا جمًّا، وعاش سنوات مديدة بعين باكية وصبر عظيم حتَّى أنه عميت عيناه، ولكن رغم ذلك فإنه لم تفلت منه كلمة مخالفة لرضى الله تعالى وكان شاكرًا وصابرًا دائمًا وكما تعبر الآية على لسان يعقوب نفسه بكلمة "صبرٌ جميل" حيث تقول (وَجَاءُوا وَعَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرُواْ جَمِيعٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)(1). وهكذا نرى إن الأخوة الكذّابين غفلوا عن تمزيق قميص يوسف عندما جاءوا به ملطخًا بالدم وقالوا لأبيهم إنَّ الذئب قد أكل يوسف في غفلة منا، ولهذا لم يصدق يعقوب كلامهم هذا وقال: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا)، ولكن بما أنه لم يكن يملك أي شيء اتجاء هذه الحادثة المؤلمة فاكتفى بالبكاء على يوسف وقال : (فَصَبِرُواْ جَمِيعٌ) أي الصبر المقترن مع الشكر على هذه المحنة دون أن تمتد إلى قلبه حالة الجزع الذميمة. وبالنسبة لعبارة "فَصَبِرُواْ جَمِيعٌ" فللمفسِّرين بيانات مختلفة في تفسيرها، فذهب البعض إلى أنَّ "الصَّابِرُ الْجَمِيلُ" هو الصبر الذي لا يخالطه الجزع ولا الشكوى للناس من المصيبة، وذهب البعض الآخر إلى أنَّ الصبر الجميل أن يكون بدافع إلهي وطلباً لرضى الله تعالى، وقد ورد في الروايات أنه سُئِلَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الصبر الجميل ما هو ؟ وقال "هُوَ الَّذِي لَا شَكَّ وَلاَ مَعَهُ" (2). وذهب آخرون إلى أنَّ الصبر الجميل هو ما لم يقترن مع الشكوى إلى الناس، وأجمل منه 1. سورة يوسف، الآية 18. 2. تفسير القرطبي، ج 5، ص 338.